نظرةٌ جديدة إلى فنّ الفُسيفساء البيزنطيّ: رموزٌ ذات دلالات سحريّة في الزّخارف الكنسيّة (الأردنّ نموذجًا)

الدكتورة رندة فؤاد قاقيش*

الملخص

سعى هذا البحث إلى إلقاء نظرة جديدة إلى الفُسيفساء في الكنائس العائدة إلى العصرين، البيزنطي والأموي، في الأردن (كساحة بحث وتنقيب ميداني شملتها الدراسة)؛ وذلك بهدف اكتشاف مؤثرات وعناصر غير دينية، لم يلتفت إليها الدارسون قبلًا، تتمثّل في حضور رموز ذات دلالات سحرية في الزخارف الكنسية كان يعتقد أنها تحمي المباني وتبعد الحسد والشر عن المؤمنين، وهي بالتأكيد موروث من تراث المنطقة.

* قسم الآثار – كلية الآثار والسياحة – الجامعة الأردنية

A New Perspective on Byzantine Mosaic

Symbols with Magical Signs in Church Decorations (The Case of Jordan)

Dr. Randa Qakeesh*

Abstract

In spite of the numerous and detailed studies dealing with the mosaic floors of the Churches of Jordan in the Byzantine and Umayyad periods, researchers ignored any possible link with the world of magic and magical practices. This paper presents a new interpretation concerning certain elements in church mosaic floors (in particular interlace ornament such as plait work and knot work), anticipating their specific apotropaic function beyond the merely decorative one.

* Department of Archaeology, Faculty of Archaeology and Tourism, Jordanian University

حظيت الأرضيات الفسيفسائية للكنائس في الأردن، في العصرين البيزنطي والأموي، (القرن الخامس الميلادي – القرن الثامن الميلادي) باهتمامٍ كبيرٍ من قبل الباحثين، إنَّما نادرًا ما تناولت الدراسات في هذا المجال، المضامينَ غير المسيحية للرموز الموجودة في تلك الأرضيات. وعلى وجه الخصوص؛ تَجَاهُلُ الباحثين لفكرة التوقف عند الأشكال والرموز المرتبطة بعالم السحر والممارسات السحرية، التي وجدنا أنها تتكرر، بصورة لافتة، في الأرضيات الفسيفسائية للكنائس المشار إليها أعلاه. وسعى هذا البحث إلى استجلائها.

من الملاحظ أن أبرز الذين عملوا في مجال دراسة الأرضيات الفسيفسائية للكنائس في الأردن، البيزنطية والأموية، كانوا من رجالات الدين الآثاريين ولا سيَّما الباحثين الذين ينتمون إلى جماعة الآباء الفرنسيسكان من معهد الفرنسيسكان للآثار، ومنهم جيروم ميهيك (Jerome Mihiac)، وبلارمينو باجتي (Bellarmino Bagatti)، وسلفستر سالر (Sylvester Saller)، وفيرجيليو كوربو (Virgilio Corbo)، وميشيل بيشريللو (Michele Piccirillo)، وإيوجينيو ألياتا (Eugenio Alliata) وآخرون، وقد كان لانتماءاتهم الدينية، بالتأكيد، أثر كبير في نظرتهم وتقييمهم وطريقتهم في تفسير موضوعات الأرضيات الفسيفسائية في كنائس الأردن.

وقد تطورت عملية الفصل بين المجالين الديني والسحري، تاريخيًا، بصورة متدرجة؛ إلا أن كثيرًا من الممارسات الدينية ما يزال، حتى اليوم، مشوبا بتقاليد سحرية مُدمجة. وهي ممارسات تعود إلى أزمنة العالم القديم، حين كان الدين والسحر، متداخلين في مجال واحد (Nock, 1972: 308-330). وتؤكد اللقى الأثرية، المؤرخة إلى المرحلة البيزنطية، أن الممارسات السحرية كانت تتم بصورة علنية، وموضع اعترافٍ عام، ومندرجة، ببساطة، في سياق ديني. ويبدو أنه حتى أكثر المسيحيين ثقافة ورفاهية، في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، لم يتحرروا من خوفهم من فكرة الحسد ومما تجلبه العين الشريرة من أضرار. وبسبب تجذر تلك القناعات بين عامة الشعب آنذاك، كان

على آباء الكنيسة التصدي لها، مع إدانتهم لأشكال السحر كلّها، واعتبارهم السحرة محتالين إلا أنهم كانوا يتكلمون عنهم وكأنهم يشكلون تهديدًا حقيقيًا (Dickie, 1995: 10).

ومنذ بدأ التأريخ الاجتماعي، سارت البشرية، في تحقيق طموحها للسيطرة على قوانين الطبيعة والمجتمع، في مسارين؛ مسار واقعي في تحسين مستوى الحياة والأمن والعمل والطب والتسلية، ومسار غيبي يأمل بالحصول على ضمانات قوى غيبية، تدرأ عنه مفاجآت الطبيعة والمجتمع، من خلال التأثير فيها بالصلاة أو بالممارسات السحرية. والمساران ما يزالان، حتى اليوم، متجاورين، وإن كان المسار الغيبي قد تراجع، في كثير من المجتمعات، على مستوى الوعي الجماعي، وظل قائمًا على مستوى الوعي الفردي.

ولئن كان الوعي المسيحي الكوني قد لبى الاحتياجات النفسية للجماعة، فإنه لم يستطع أن يلبي كامل الاحتياجات النفسية للمسيحي الفرد، الباحث عن ضمانات غيبية مباشرة. وجراء هذا التلازم الواقعي بين الجماعي والفردي، قدمت الكنيسة، كثيرًا من التنازلات لدمج الممارسات السحرية في تقاليدها، في مسعى لإرضاء المؤمنين. إلا أن الممارسات السحرية الصافية، خارج الكنيسة، بقيت قائمة وفاعلة، تسوّغها الممارسات العجائبية لقديسي الكنيسة أنفسهم. وهو تداخل دفع بالقديس أوغسطين (St. Augustine) (354–430م) إلى التمييز بين الممارسات العجائبية المنضوية في الإيمان المسيحي وتلك السحرية المحاذية له، من خلال التمييز على أساس الفارق المعياري بين العام والخاص، بين عجائب القديسين، الهادفة إلى نشر الإيمان المسيحي وتدعيمه ، وبين الممارسات السحرية الهادفة إلى خدمة مصالح فردية أنانية (Markus, 1994: 376-378). إلا أن هذا التمييز، كما هو واضح، له طابع أخلاقي صرف، ولا ينقض الممارسات السحرية، بل يعترف بها. وفي الحقيقة، فإن الفكر الديني لا يستطيع أن ينقض صدقية السحر من دون أن ينقض ذاته. ولذلك، فقد اعتمد، دومًا، صيغًا من الأطروحة الأوغسطينية التي تعترف بالسحر واقعيًا، ولكنها تدينه أخلاقيًا.

غير أن هذا الموقف النظري لم يكن صارمًا؛ ففي الممارسة الدينية الواقعية، كان على الكنيسة أن تأخذ بالحسبان تلك الفجوة القائمة بين الاحتياج العام والاحتياج الفردي، وأن تسعى للدمج بينهما، للسيطرة على كامل المجال النفسي العاطفي للمؤمنين. وهذا ما تجاوز الممارسات الدينية في استعادة الطقوس الوثنية والسحرية، إلى الممارسات الدينية الفنية، خصوصًا في أرضيات الكنائس الفسيفسائية، التي تمثّل، في النهاية، نتاجًا متداخلًا بين الوعي المسيحي الكنسي والوعي السحري الاجتماعي، المتجسدة في روح الفنان، صانع الأرضيات الفسيفسائية التي تعكس شبكة العقائد السائدة المدمجة معًا في العصر البيزنطي–الأموي.

تؤكد العديد من اللقى الأثرية التي عُثِرَ عليها في أثناء الحفريات أن عقيدة حماية المنازل وأهلها، عن طريق رسوم تشكل رموزًا سحرية، عقيدة عرفت لدى حضارات عديدة (Mitchell, 2007: 273-310).

ومن الرسومات التي تتكرر على أرضيات المنازل الفسيفسائية، خصوصًا عند المداخل والنوافذ وأعتابها العليا، "عقدة سليمان" و"العين المضادة للحسد". وكان وضع تلك الرسومات، جزءًا من طقوس سحرية ترافق عملية البناء، وتطهيره، وتحويطه من أذى القوى الشريرة. وعقيدة "التحويطة" استمرت في التراث الشعبي حتى اليوم؛ ففي دعاء النساء العربيات لأبنائهن، ما يزال هذا الدعاء يتردد" حوطتك بالله من عيني ومن عين خلق الله، ومن عين الحسود اللي ما تذكر الله"، ونلحظ، هنا، إدماج المعتقد السحري بالمعتقد الديني.



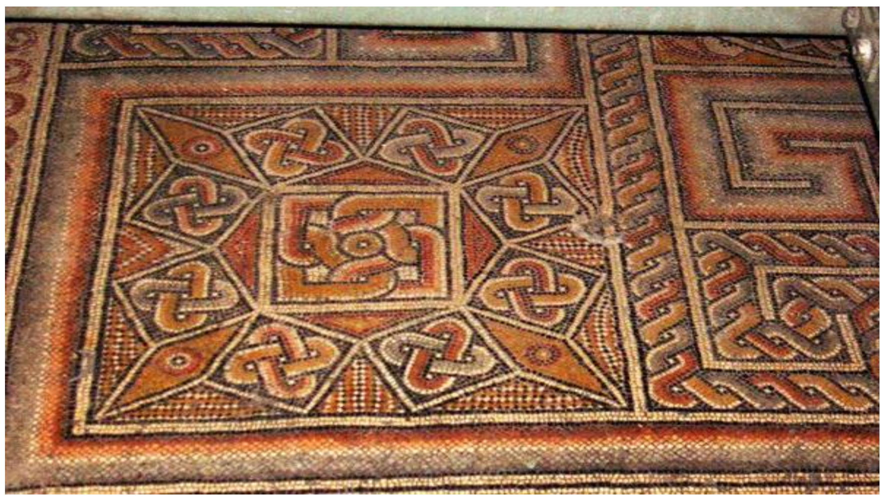
اللوحة (1): أرضية فسيفسائية تزين مدخل بناء روماني – عمان
(Piccirillo, 1993: 263)

يؤكد وليم برنتيس (William Prentice) أن الهدف من الأشكال الرمزية في الأبنية، ليس مجرد الزخرفة الجمالية، وإنما هي، بالأساس، رموز سحرية تدرأ الشر وتجلب الحظ الجيد؛ ويلحظ أن تلك الرموز مع التعابير التي تتضمن اسم الله أو المسيح، كانت تنقش في معاصر العنب والحوانيت والمنازل وحتى اصطبلات الخيل، وأكثر الأمكنة شيوعًا لنقشها الأعتاب العلوية للبوابات وإطارات النوافذ؛ ففي الاعتقاد الشعبي أن الأرواح الشريرة، مع كونها أثيرية، إلا أنها لا تستطيع أن تخترق الجدران، بل تدخل من الأبواب والنوافذ التي تُحصّن من الأرواح الشريرة ومن البشر الحاسدين، إذًا، بالرموز السحرية[1] (Prentice, 1906:137-150) لوحة (1).

لفت إرنست كتزنجر (Ernest Kitzinger) الانتباه، وذلك في دراسته لفسيفساء كنيسة المهد الأولى، أي كنيسة القرن الرابع الميلادي، إلى وجود شكل ضمن الأرضية الفسيفسائية أشير إليه بعقدة سليمان (Solomon's Knot) أو عقدة هرقل (Hercules Knot)

(1) من النقوش التي تتكرر على مداخل المنازل في سورية والموجهة للبشر "إذا أنت باركت هذا المنزل وساكنيه، فلترتد بركتك عليك وإن أنت لعنت فلترتد لعناتك عليك مضاعفة".

لوحة (2)، كان برأيه يؤدي وظيفة ما، وأن استعمال الزخرف نفسه في المنازل[2] والكنائس وانتشاره الواسع ومكان وضعه داخل البناء، تلك عوامل كلّها أكدت برأيه وظيفة سحرية مبتغاة (Kitzinger, 1970: 639-647).



اللوحة (2): جزء من الأرضية الفسيفسائية من كنيسة المهد الأولى

(كنيسة القرن الرابع الميلادي)

http://en.academic.ru/dic.nsf/enwiki/11670628#Occurrences

(2) درس كتزنجر منزلين: الأول في أوستيا، المؤرخ للقرن الثاني الميلادي، والثاني في أنطاكيا (منزل Phoenix)، المؤرخ للقرن السادس الميلادي وكلاهما تظهر في أرضيتيهما الفسيفسائية زخرفة عقدة سليمان عند المداخل.



اللوحة (3): جزء من الأرضية الفسيفسائية لكنيسة بيت مري (لبنان)
(Noel Duval, 2003: 35)

تتنوع الموضوعات التي تشكل زخارف الأرضيات الفسيفسائية في كنائس الأردن في العهدين، البيزنطي والأموي؛ فهناك المشاهد الريفية التي تصور عمليات الزراعة والحصاد وقطف العنب وعصره وصور الحيوانات البرية والمدجنة، والمشاهد النباتية من ملتويات الكرمة والأكانثس والوريدات والأشجار، وكذلك الأنهر ومسيلات المياه، ومشاهد رمزية تشخّص تتالي الفصول والأشهر، ومشاهد معمارية وزخارف هندسية بسيطة، وأخرى متشابكة ومجدولة وذات عُقَد.

تباينت تفسيرات الآثاريين لتلك التصاوير الفسيفسائية؛ فكان توجه الآثاريين من الآباء الفرنسيسكان (الذين كشفوا عن مجموعة أساسية من كنائس الأردن، البيزنطية– الأموية، ودرسوها)، مسيحيًا عقائديًا، إذ رأوا أن زخارف الكنائس تلك قد خضعت لبرنامج متكامل، الهدف منه تمجيد الله، خالق السموات والأرض وما عليها من حياة وبشر ونبات وحيوان.. إلخ. وقد فصّلوا في درس الأرضيات الفسيفسائية وفق هذا المعيار الذي راوح بين المنظور الواقعي والمنظور المجازي؛ فصور الحيوانات، مثلًا، تعبّر عن حيوانات واقعية تدُّل على الإبداع الإلهيّ، وبالمقابل، اتبعوا التفسير المجازي، بحيث أصبحت صورة الحمل، مثلًا، ترمز إلى المسيح.

ويلحظ هنري ماجوير (Henry Maguire) اختلاف النظرة إلى التصاوير ذاتها، خلال العصور الوسطى، إذ سرى بين المؤمنين، في العصر البيزنطي، توجه للنظر إلى التصاوير الحيوانية، بوصفها جميعًا، رموزًا سحرية، تشكل تعاويذ لقوى غير مرئية، وتغدو، ومن ثمَّ، مجردة عن واقعيتها لتغدو طلاسم لها قوة سحرية(Maguire, 2000: 18-33)).

إلا أن هذا النقاش يظل يحتمل الأخذ والرد، في حين تقودنا الأشكال الهندسية المكررة والعُقَد على أرضيات الكنائس موضع بحثنا، إلى افتراض له مسوغاته القوية، تاريخيًا وعقائديًا وفنيًا، وهو إدماج الرموز السحرية والدينية معًا، في العقيدة المسيحية الشعبية التي فرضت نفسها على الكنيسة. فعلى رغم موجة التقوى المسيحية التي عرفت في العصر البيزنطي، بقيت عدة ممارسات وثنية وسحرية قديمة حاضرة في الإيمان المسيحي؛ فجنبًا إلى جنب مع الصلوات، بقي المسيحيون يعتقدون بأنه من الضروري زيادة التحوّط بواسطة تمائم تُلبَس كالقلائد والخواتم والصلبان، أو بواسطة رفع الصليب على مداخل البيوت، كما أثبتت اللقى الأثرية مرارًا.

وكان آباء الكنيسة الأوائل، قد دمجوا، صراحة، بين الاعتقاد الشعبي "بالعين الحسود" مع الاعتقاد المسيحي؛ فإذا كان الشيطان هو مصدر الشرور، فإنه يستخدم، لتحقيق غايته، البشر الحاسدين(3).لم تنحصر العقيدة التي تدمج الديني بالسحري بالعامّة، كما يمكن التوقّع، بل كانت عقيدة اجتماعية تفرض نفسها على الفئات جميعها، بمن فيها الفئات المتنفذة والميسورة، التي كانت في العصر البيزنطي، مموِّلًا رئيسًا لبناء الكنائس. وهو سبب إضافي لخضوع آباء الكنيسة لرغبة الممولين في دمج الرموز المسيحية والسحرية معًا في الأرضيات الفسيفسائية للكنائس، التي نجدها، أيضًا، في الأرضيات الفسيفسائية في منازل الموسرين. ويمكننا القول: إن هؤلاء، ربما كانوا أكثر تعلّقًا بالرموز السحرية الحامية والجالبة للحظ؛ ويساعدنا بورس جيرشمان

---

(3) تشير آيات محددة في الإنجيل "للأفكار الشريرة" التي تسكن قلوب الناس ومنها العين الشريرة. انظر: مرقس 7، ص: 21–22، متى 6، ص: 22–23، لوقا 11، ص: 33–34.

(Boris Gershman) في تأكيد هذه الفكرة، إذ يرى أن عقيدة وجود العين الحاسدة الشريرة، واستخدام الرموز السحرية في صدها، تجد أساسها في المُلْكية الخاصة، المحسودة والواجبة الحماية، من قبل المحرومين من المُلْكية. هكذا تغدو تلك العقيدة، وسيلة دفاع ثقافية، يستخدمها المالكون، عن وعي، لدرء الحسد الطبقي الواقعي، خصوصًا في المجتمعات التي يتزايد فيها الانشقاق بين الأغنياء والفقراء[4](Gershman 2014: 1- 47)

احتل شكل العقدة مكانة بارزة كرمز سحري حام من الشرور في أقدم مراحل التاريخ المعروف؛ فالنصوص السحرية من مصر القديمة (المملكة الوسطى)، تشير إلى تشكيل العقد . التي عادة ما تكون من القماش أو مواد أخرى . في تحضير الرقى السحرية ضد الأمراض والحيوانات الخطرة والزواحف الخ.. وفي بلاد الرافدين، عثر على رقم طينية تسجل عملية تشكيل العقد السحرية، وتلاوة تعويذة خاصة مع كل عقدة يتم ربطها، بهدف نيل مطلب معين. وهناك، أيضًا، إشارات إلى العقد السحرية في العديد من المخطوطات اليونانية (Faraone 2001: 101;Borghouts 1978; Wendrich 2006:262-26) .

فقد اختلفت، بمرور الزمن واختلاف الحضارات، تشكيلات العقد السحرية إلا أنها ظلت تؤدي الوظيفة ذاتها دومًا. ورجح باحثون أن الاعتقادات بشأن العقد السحرية، تقوم على وجود قوى خفية، ما فوق طبيعية، تمنع قوى الشر من تنفيذ مآربها. وكل عقدة تنطوي على حماية سحرية تعترض تلك القوى، أو تستجلب حظًا معينًا، وفقًا لاختصاصات الحماية والحظ، المميزة لكل منها. ويتم التيقن، بالنسبة إلى صانع التميمة، من ذلك، بتلاوة التعاويذ في أثناء تشكيل العُقَد التي لها، عنده، القدرة على حفظ قوة الكلمة، أي تخزينها إلى حين الحاجة؛ مما يدُل على أنَّ قوة العقدة السحرية مرتبطة

(4) من الدلائل المادية التي تؤكد انتشار القناعة بالسحر وممارسته في المرحلة البيزنطية العثور على مجموعة كبيرة من الزبادي في العراق وأغلبها مؤرخ ما بين القرنين الخامس والسابع الميلاديين، وهدفها حماية أشخاص أو عائلات أو ممتلكات. والكتابات على تلك الزبادي (وأغلبها بالآرامية) تهدف إلى طرد القوى الشريرة بإيقاعها في الشرك ومن ثم تطرحها جانبًا(BeDuhn 1995: 419,434; Levene 2000: 9).

بنوع التعويذة التي قرئت في أثناء عقدها. وتشكل هذه العملية برمتها طقسًا سحريًا نصادفه، مثلًا، في الأوديسة، حيث يرد، في هذه الملحمة الإغريقية، ذكر لـ "عُقد الريح" التي يحملها البحار لاستجلاب الرياح الدافعة للسفن الشراعية (Wendrich, 2006: 251–262).

سجّل المؤرخ الروماني بليني (القرن الأول الميلادي) ملحوظة عن تميمة خاصة بالصيادين، تتمثل في تشكيل سبع عقد في حزام الصياد، تحميه وتساعده في صيد الضباع، وملحوظة أخرى عن تشكيل عقدة في شعر حيوان، تساعد على الحمل(Pliny, xxxiii: 27).

إن ازدهار الاعتقاد بالعقد دائرة الشر، كتقليد فني سحري في العصر الروماني استمر يؤدي، حتى القرون الوسطى، دورًا رئيسًا في الفن المسيحي، أي أكثر من ألف عام، وفي بقاع عديدة في العالم المسيحي، يجعلنا نرجح أن شعبية هذه الأشكال لا يعود إلى جمالياتها الزخرفية، فقط، بقدر ما يعود إلى استمرار الإيمان بفاعليتها في درء الشر (Trilling, 2001: 135-136).

وحين نتفحص أرضيات كنائس الأردن، البيزنطية الأموية، نصادف، تكرارًا، ما افترضنا أنها رموز سحرية صريحة تتعلق بدرء الحسد وطرد الأرواح الشريرة وحماية الأبنية، الدينية أو المدنية، منها صور الحيوانات الحامية، جنبًا إلى جنب مع الصليب؛ إلا أن الاستراتيجية السحرية لمقاومة قوى الشر الغيبية، تجلت أكثر ما تجلت في أشكال من التشبيكات التي تمتلك ميكانيكة خاصة غامضة في مقاومة نيَّات الشر وأفعاله، المتصوَّرة كموجات يتم اجتذابها وإرباكها وتفكيكها في متاهة لا بداية لها ولا نهاية، ولا مدخل ولا مخرج، من التشبيكات التي تتحدى "العين" والإرادة الشريرتين على استقصاء بنائها الداخلي المعقّد، أو تتبع التفافاتها وتقاطعاتها وعقدها. والعقد هي مركز مقاومة الشر، الأكثر قوة. وكلما تضاعفت العقدة، وتعقّدت أكثر، كانت فعاليتها في درء الشر، أكبر.

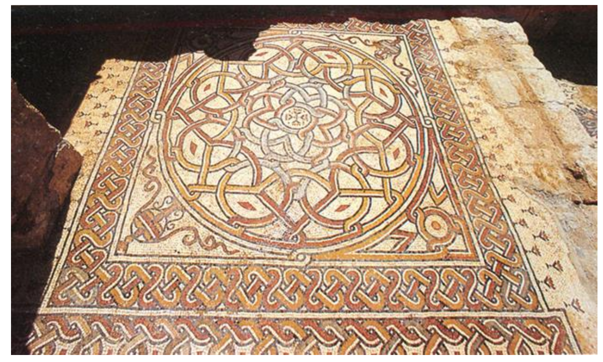
من الزخارف التي يتكرر ظهورها في الأرضيات الفسيفسائية للكنائس موضع البحث، زخرفة التشبيك (Interlace Ornament) بتفريعيها: التضفير (Plait Work) وتشكيل العُقَد (Knot Work)، مما ينتج عنها منوعات شكلية لا متناهية وممتدة ومكررة (Trilling, 2001).



اللوحة (4): كنيسة العذراء – مأدبا(Piccirillo, 1993: 50)

والأمثلة على تلك الزخارف في الرصفات الفسفسائية للكنائس موضع البحث عديدة، نذكر منها تلك في: كنيسة العذراء (مأدبا) لوحة (4)، كنيسة الخضر (مأدبا)، مصلى الشهيد ثيودور (مأدبا)، وكنيسة السلايطة (مأدبا)، وكنيسة سياغا، وكنيسة قايانوس العليا وكنيسة قايانوس السفلى (عيون موسى)، والكنيسة السفلى (ماسوح)،

والكنيسة الغربية (ماعين)، وكنيسة الدير (ماعين)، وكنيسة الأكروبولس (ماعين)، وكنيسة الأسقف سرجيوس (أم الرصاص)، وكنيسة القديس أسطفانوس (أم الرصاص) (لوحة 5)، وكنيسة زي الغربي، وكنيسة يوحنا وإيليا (الخطابية)، وكنيسة الآباء القديسين (الخطابية)، وكنيسة اليصيلة الغربية، وكنيسة جبل القلعة السفلى (عمان)، وكنيسة جبل الخضر (عمان)، ومصلى كنيسة القديس ثيودور(جرش)، وكنيسة القديسان كوزمس ودميان (جرش)، وكنيسة بروكوبيوس (جرش)، وكنيسة الأسقف أشعيا (جرش)، وكنيسة القديسة مريم (رحاب)، وكنيسة القديس بطرس (رحاب)، وكنيسة إيجومين (الخربة السمرا)، وكنيسة أنسطازيوس (الخربة السمرا)، وكنيسة القديس جاورجس (الخربة السمرا)، وكنيسة خربة المنية لوحة (6)، وكنيسة خربة الوهادنة، وكنيسة حوفا الوسطية، وكنيسة الهاشمية (عجلون)، والكنيسة المركزية (طبقة فحل)، وكنيسة دير الصمادية لوحة (7) وغيرها [5].



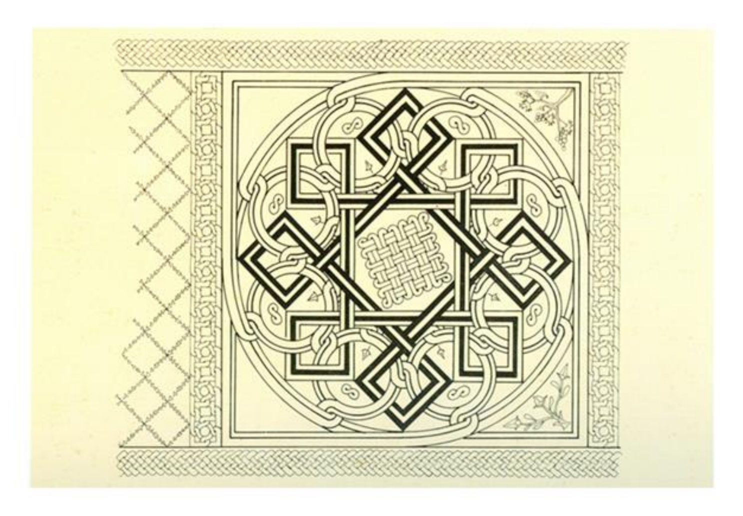
اللوحة (5): كنيسة القديس أسطفانوس – أم الرصاص (Piccirillo and Alliata, 1994:138)

---

(5) بشأن أنماط تلك الكنائس وتواريخها، انظر: قاقيش: عمارة الكنائس وملحقاتها في الأردن في العهدين البيزنطي والأموي، دار ورد، عمان، 2007.



اللوحة (6): كنيسة خربة المنية (Piccirillo, 1993:299)



اللوحة (7): كنيسة دير الصمادية (Piccirillo, 1993: 338)

يرى هنري ماجوير (Henry Maguire) أن تكرار الأشكال الرمزية ضمن الأرضيات الفسيفسائية، يمكن تفسيره باتجاهين؛ الأول، أن التكرار يُفقد الرموز قوّتها السحرية، والثاني أن التكرار يعزز تلك القوة. وأرجح ماجوير الاتجاه الثاني، حين أشار إلى نقش في كنيسة الشيخ زويّد في مصر، يدعو المؤمنين إلى تكرار الصلاة، لطرد الروح الشريرة (Maguire, 1994: 266-267).

ومن العقد التي لحظناها العقدة المسماة "عقدة سليمان" أو "عقدة هرقل"، التي نرجح أنها رمز سحري في الفن البيزنطي؛ ففي رموز وكتابات القلائد الحامية من الشر، ذات الشعبية الواسعة في المرحلة البيزنطية، تكرر ظهور "عقدة سليمان"، وتحمل إحدى التمائم النحاسية من سميرنا(إزمير)، وصورة فارس يمتطي حصانًا وكتب معها: "يا ختم سليمان أبعد الشرور عن حامل هذه التميمة" (Russel, 1995: 40-42; ft. 18). وفي كنيسة شونة نمرين البيزنطية (الأردن) (Piccirillo, 1982: 335-342)، وفي الأرضية الفسيفسائية الأقدم المؤرخة للقرن السادس الميلادي، تظهر زخرفة "عقدة سليمان" على الأرضية الفسيفسائية للرواق الأوسط لوحة (8) تحيط بها الكلمات الآتية: "فليكن الله معنا"؛ فللكلمة، هنا، كما للصورة، قوة الحماية من الشر.



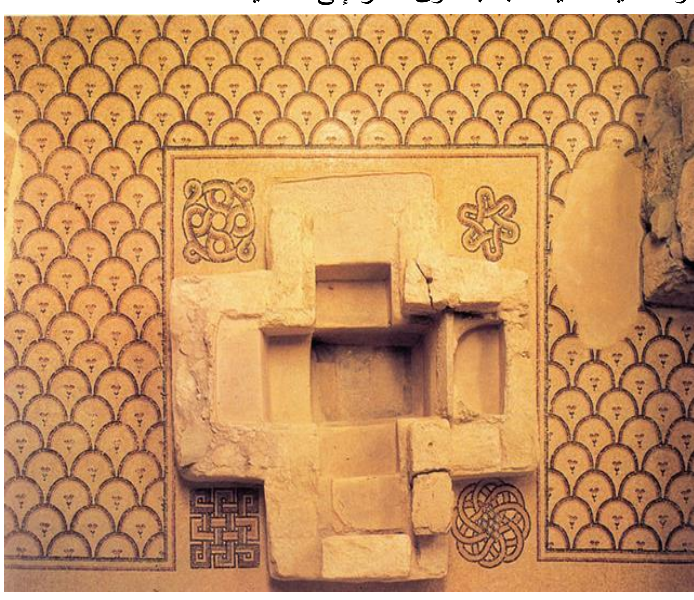
اللوحة (8): كنيسة الشونة الجنوبية – الرواق الأوسط (Piccirillo, 1982: 320)

ويقترح وليم كراهير (William Caraher)، في دراسته للأرضيات الفسيفسائية لكنائس اليونان المبكرة وجود علاقة بين أشكال "عقدة سليمان" وأماكن وجودها، من جهة، ومسار موكب الكهنة والرهبان، في أثناء الصلاة داخل الكنيسة؛ وكأن العُقد المكررة تحمي

الموكب في أثناء مروره في الرواق الأوسط، للكنيسة ذات المخطط البازليكي (Caraher, 2003: 136-183).

ومن زخارف التشبيك ذات الدلالة في الكنائس موضع بحثنا، الزخارف المنقّذة حول أجران التعميد. ومن اللوحات التي حفظت سليمة من تلك الزخارف، تلك التي في كنيسة سياغا (الأردن)، في المعمد المؤرخ للعام 530 ميلادية لوحة (9)، إن اختيار أشكال محددة من التشبيكات المعقدة، وإحاطة جرن التعميد بها، له، بالتأكيد، علاقة وظيفية سحرية بطقس التعميد نفسه؛ فالتعميد، بالمياه المباركة المقدسة، لم يكن، فقط، علامة انتماء إلى المسيحية، وإنما، أيضًا، هو طقس تطهّري، جسديًا وروحيًا، بوصفه تطهيرًا من آثامه واعتقاداته السابقة للمسيحية.

وتقوم الرموز السحرية، هنا، بوظيفتين، طرد مؤثرات الأرواح الشريرة من المسيحي المستجد، وتحصينه، كيلا تجتذبه قوى الشرّ إلى ماضيه.



اللوحة (9): جرن المعمودية-كنيسة سياغا (الأردن) (Piccirillo, 1998: 275)

تخبرنا الحاجة إيجيريا (Egeria) التي حجت إلى الأراضي المقدسة أواخر القرن الرابع للميلاد، وكذلك سيريل المقدسي (Cyril of Jerusalem) ويوحنا فم الذهب، (John Chrysostom) عن طقس التعميد، ما يساعدنا في تكوين الصورة الآتية: كان الكاهن الذي يتولى تعميد المهتدي المسيحي، يقوم، أولًا، بطقس طرد الأرواح الشريرة منه، بالصلاة والتعزيم لطرد الأرواح الشريرة من جسده، ودهنه بزيت مقدس، فضلًا عن ممارسات سحرية أخرى مستعادة من التراث ما قبل المسيحي، لكي يغدو المهتدي مطهرًا وجاهزًا للتعميد والتحصن بالمسيح والإيمان الجديد (Trzcionka, 2007: 62-111).

الخلاصة:

من خلال الإحاطة بمؤشرات التداخل بين الديني والسحري في مسيحية العصرين، البيزنطي والأموي، والمقارنة بدراسات تناولت هذا البعد في بلدان أخرى، تتبع البحث، حضور ما يُرجَّح أنها رموز سحرية، في عدة أرضيات فسيفسائية في كنائس الأردن، في العصرين المشار إليهما. وهي تُلحظ في أشكال معقدة البنية تعتمد على التشبيك وتشكيل العُقَد، وتكرار وضعها في مداخل الكنائس، وعند نوافذها، وعبر خط سير رجال الدين فيها الخ، بما يعزز فرضية كونها أشكالًا ذات طابع سحري كان يُعتقَد بأنها تمنع تسلل الأرواح الشريرة إلى المباني الكنسية والسكنية، وتدرأ الشر والحسد عن المؤمنين.

المصادر والمراجع

1. Be Duhn. J, Magical Bowls and Manichaeans, Ancient Magic and Ritual Power, Marvin Meyer and Paul Mirecki (eds.), Brill, Leiden, 1995.
2. Borghouts. J,(Trans), Ancient Egyptian Magical Texts, Religious Texts Translation Series, Vol. 9, Brill, Leiden, 1978.
3. Caraher. W, Church, Society and the Sacred in Early Christian Greece, Unpublished phd., State University, Ohio, 2003.
4. Crow. J, , Miracle or Magic? The Problematic Status of Christian Amulets, From Discussion to Experience: Religious Studies at the University of Amsterdam, Jacqueline Braak and Deirdre Malone (eds.), Ars Notoria, University of Amsterdam, Pp: 97-112, 2009.
5. Dickie. M, The Fathers of the Church and the Evil Eye, Byzantine Magic, Henry Maguire (ed.), Dumbarton Oaks Research Library and Collection, Washington, D.C, 1995.
6. Duval. N, (ed), Les Eglises de Jordanie et leurs Mosaiques. Institut Francias de Porche – Orient, Beyrouth, 2003.
7. Faraone. C, Ancient Greek Love Magic, Harvard University Press, Cambridge, MA, 2001.
8. Gershman. B, The Economic Origin of the Evil Eye Belief, Working Papers, American University, Washington, DC, Pp: 1-47, 2014.
9. Kitzinger. E, “The Threshold of the Holy Shrine: Observations on Floor Mosaics at Antioch and Bethlehem”, Josef Andreas Jungmann and Patrick Greenfield (eds.), Kyriakon Festschrift Johannes Quasten 2, Munster im Westfalen, Pp: 639-647, 1970.
10. Levene. D, Curse or Blessing: What`s in the Magic Bowl ? “ Parkes Institute Pamphlet, University of Southampton, No. 2: 1-48, 2002.
11. Maguire. H, “ Profane Icons: The Significance of Animal Violence in Byzantine Art”, Anthropology and Aesthetics, no.38: 18-33, 2000.
12. Maguire, H. “Magic and Geometry in Early Christian Floor Mosaics and Textiles”, Jahrbuch der Osterreichischen Byzantinistik, vol. 44: 265-274, 1994.
13. Markus. R, “ Augustine on magic: A neglected semiotic theory ”,Revue des Études Augustiniennes, 40: 375-388, 1994.

14. Mitchell. J, " Keeping the Demons Out of the House", Objects in Context: Objects in Use،Late Antique Archaeology, Luke Lavan et.al.(eds.), Brill, Leiden: Vol 5: 273-310, 2007.
15. Nock. A, "Paul and the Magus", Essays on Religion and the Ancient World I, Cambridge, Mass: 308-330, 1972.
16. Piccirillo. M, The Mosaics of Jordan, ACOR, Amman 1993.
17. Piccirillo, M. " A Church at Shunat Nimrin", Annual of the Department of Antiquities of Jordan, Vol. 26:335-342, 1982.
18. Piccirillo. M, and Eugenio. A, (eds.), Mount Nebo: New Archaeological Excavations 1967-1997. StudiumBiblicum Franciscanum, Jerusalem, 1998.
19. Piccirillo. M, and Eugenio. A, (eds.), Umm Al-Rasas: Mayfa`ah I, Studium Biblicum Franciscanum, Jerusalem, 1994.
20. Pliny, Natural History, H. Rackham and W. Jones and D. Eichholz (eds.), Harvard University Press. 1949-54.
21. Prentice. W, " Magical Formulae on Lintels of the Christian Period in Syria" , American Journal of Archaeology,. 10(2): Pp.137-150, 1906.
22. Russel. J, " The Archaeological Context of Magic in the Early Byzantine Period", Byzantine Magic, Henry Maguire (ed.), Dumbarton Oaks Research Library and Collection Washington, DC. 1995.
23. Saller. S, The Memorial of Moses on Mount Nebo, Studium Biblicum Franciscanum, 1(1) Jerusalem, 1941.
24. Saller. S, and B. Bagatti. The Town of Nebo,Studium Biblicum Franciscanum, No:7, Jerusalem, 1949.
25. Trilling. J, The Language of Ornament, Thames and Hudson, London, 2001.
26. Trzcionka. S, Magic and the Supernatural in the Fourth-Century Syria, Routledge, London and New York, 2007.
27. Wendrich. W, "Entangled, Connected or Protected? The Power of Knots and Knotting in Ancient Egypt", Through a Glass Darkly: Magic, Dreams and Prophecy, in Ancient Egypt, The Classical Press of Wales, Wales ,Pp: 243-269 2006.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2016/8/3